القمر فى القرآن

مادة « القمر » اللغوية تدل فى الأصل على البياض فى الشىء ، ومن هنا جاء اسم كوكب « القمر » لبياضه ، وقيل إنه سمى بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب ، أى يغلبه ويفوز به ، من المقامرة ، ولذلك لا يظهر ضوء الكواكب عند سطوع القمر .

والقمر هو ذلك الكوكب السماوى السيار ، الذى يستمد نوره من الشمس ويدور حول الأرض وينيرها ليلا ، وهو كوكب تابع للأرض ، ويؤثر فيها ، إذ يسبب حركة المد والجزر فى مياه البحار ، ويؤثر فى الأمواج والرياح ، وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض ، ولذلك يبدو لنا أكبر من حجمه بكثير ، وهو ليس ساكناً فى مكانه ، بل له حركته ، واتجاهه يتغير على الدوام ، وإن كانت مسافة بُعده عن الأرض تظل ثابتة ، فهو يسير حول الأرض فيما يقرب من الدائرة ، فيطوف حولها كل شهر مرة ، ومعنى هذا أنه يدور حول نفسه فى الفضاء مرة فى الشهر .

هكذا تحدث علماء الفلك والكون فيما تحدثوا عن القمر .

فما حديث القمر فى القرآن الكريم ؟

لقد ذكر كتاب الله القمر أكثر من خمس وعشرين مرة ، وهذا الذكر المتكرر يدل – بادئ ذى بدء – على عناية التنزيل المجيد بهذا الكوكب الذى خلقه الله وأبدعه ، ويسر الانتفاع به لعباده ، ثم تكرر قسم القرآن بالقمر ، فقال فى سورة المدثر : « كلاَّ والقَمَرِ » (الآية ٣٢) . وقال فى سورة الانشقاق : « والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ » (الآية ١٨) . أى إذا تم واستدار وصار بدراً ، وقال فى سورة الشمس : « والشَّمْسِ وضُحاهَا ، والقَمَرِ إذا تَلاَهَا » (١ ، ٢) . والمعروف أن القسم يكون بما له قيمة ومكانة ، ولذلك يذكر الإمام الرازى أن الله تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر فى القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة ، حتى يتأمل المكلف فيها ، ويشكره عليها ، لأن الشىء الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب ، فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى .

ومن مظاهر عناية القرآن بالقمر أن سورة من سوره قد سماها « سورة القمر » وافتتحها بذكره فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

ولقد امتن الله تبارك وتعالى على عباده بنعم كبرى تقوم بها الحياة ، ويحتاج إليها الأحياء ، ومن بينها القمر . ولذلك قال القرآن فى سورة الأنبياء : « وهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهار والشَّمْسَ والقَمَرَ ، كلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الآية ٣٣) . كما ذكر وكرر وأكد أنه الذى تفضل على خلقه ، فسخر لهم هذه الأشياء ، ومنها القمر ، ليتمكنوا من استخدامها وقطف ثمراتها ، فقال فى سورة الأعراف : « إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ فى ستَّةِ أيَّامٍ ، ثمَّ استَوَى علَى العَرْشِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُه حَثِيثاً ، والشمْسَ والقَمَرَ والنُّجومَ مُسخَّرات بأَمْرِهِ ، أَلاَلَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ ربُّ العَالَمِينَ » (الآية ٥٤) . وقال فى سورة إبراهيم : « وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْس والقَمَرَ دائبَيْنِ وسخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ » (الآية ٣٣) . وقال فى سورة العنكبوت : « ولَئِنْ

سألتهم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ وسخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فأنَّى يؤْفَكُونَ » (لاية ٦١) .

ولم يقتصر حديث القرآن الكريم عن القمر على التذكير بنعمه التسخير ، بل أعطانا فى مواطن منه كثيراً من الإشارات والرموز التى تهدى إلى أضواء من العلم والمعرفة ، فيما يتعلق بنظام الكون وأسراره ، فيقول فى سورة يونس : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُوراً ، وقدَّرَهُ منازِلَ لتعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِين والحِسابَ ، ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ يفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعْلَمُونَ » (الآية ٥) . ونحن نعرف من المعلومات الكونية أن الضوء أقوى وأبلغ من النور ، ولذلك نسبت الآية الضياء إلى الشمس ، ونسبت النور إلى القمر ، لأن الشمس أقوى من القمر ، وقال أهل التفسير إن الضوء ما كان بالذات كالشمس والنار ، وأما النور فيكون بالعَرَض والاكتساب من الغير .

وقد ذكرت الآية أن الله تعالى قدر القمر « منازل » أى جعله على مقادير معينة مخصوصة ، فجعل للقمر أماكن للنزول ، أو قدر سيره فى فلكه ، وللقمر ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل كل ليلة فى واحد منها بنظام دائب دائم لا يضطرب ، وهو يحتجب عن الرؤية ليلة أو ليلتين كل شهر ، فيغيب ليلةً إذا كان الشهر القمرى تسعة وعشرين يوماً ، ويغيب ليلتين إذا كان الشهر ثلاثين .

وهذا الكلام من أهل التفسير يتلاقى وكلام العلماء الكونيين ، فهم يذكرون أن القمر جسم كروى مظلم ، ولكن أشعة الشمس تضىء نصفه المقابل لها ، ويتغير الجسم المستضىء من القمر من يوم لآخر فى الحجم والشكل ، فأول ما نراه يكون خطًّا رفيعاً منحنياً مستنيراً ، ثم يزداد حجمه شيئا فشيئا ، حتى يصير دائرة تامة ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يصبح

خطا كما كان فى أول ظهوره ، وتسمى هذه الأشكال المختلفة : أوجه القمر .

وفى أول الشهر القمرى يتوسط القمر بين الأرض والشمس ، فلا يظهر منه نور على الأرض ، ويقال إنه فى المحاق ، ولا يمكن حينئذ رؤية القمر ، ثم يظهر خط رفيع من النور ، ويسمى الهلال ، ثم يأخذ الجزء المستضىء فى الازدياد ، حتى إذا مضت سبعة أيام تحول شكله إلى نصف دائرة ، ويقال حينئذ إنه فى التربيع الأول ، ثم يأخذ فى الازدياد عن نصف الدائرة ، ويدعى بالأحدب ، وفى اليوم الخامس عشر تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ، فيظهر لنا القمر على شكل دائرة ، ويسمى البدر ، ثم تتكرر الأوجه السابقة على عكس ما مضى ، وهكذا .

هذا كلام أهل التفسير ، وهذا كلام أهل العلم ، وكل من الفريقين يتركز علمه فى قوله تعالى : « وقدره منازل » الذى يأتى عقبه التذكيرُ بثمرة هذا التقدير فى قوله سبحانه : « لتعلموا عدد السنين والحساب » . أى أن الحكمة فى تقدير الله منازل القمر هى أن تضبطوا حساب الأيام والشهور والأعوام ، ومن وراء هذا الضبط تنتظم حياتكم وواجباتكم ، وتستطيعون القيام بعباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية .

ولولا هذا النظام المشاهد – كما يذكر تفسير المنار – لتعذر على الأميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك ، لأن حساب السنين والشهور الشمسية فن يحتاج إلى دراسة وعلم ، ولذلك جعل الشرع الإسلامى شهر الصوم وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الإيلاء ونحو ذلك ، بالحساب القمرى الذى يعرفه كل واحد بالمشاهدة ، فلا يتوقف على علم فنى يندر وجوده فى غير أماكن العلم والحضارة . وإن كان هذا لا يمنع أن فى عبادتى الصوم والحج حكمة أخرى فى ربطهما بالحساب القمرى ، وهى دورانهما فى جميع

الفصول ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات ، من حارة وباردة ، ومعتدلة ، وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسى الذى له فوائد أخرى .

ولقد أكد القرآن الإشارة إلى الحقيقة العلمية ، وهى أن ضوء الشمس ذاتى ، وأن نور القمر مأخوذ عنها ، فقال فى سورة الفرقان : « تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً » (الآية ٦١) . والمراد بالسراج هنا هو الشمس ، بدليل قوله فى سورة نوح : « وَجَعَلَ القَمَرَ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » (الآية ١٦) . والسراج فى الأصل هو الضوء الزاهر بفتيلة ودهن . أى أنه ضوء منبعث من ذات الشىء ، وهذا ينطبق على الطاقة الحرارية المضيئة فى الشمس ، وأما القمر فهو نور أو منير ، أى ينير بوساطة الإشعاع الشمسى المنبعث من طاقتها التى تسقط على القمر فتنيره ، فكأن كلمتى « السراج » و « النور » تشيران إلى أن الشمس هى مصدر الطاقة الحرارية وهذا ما يقرره العلم .

* * *

ويعود القرآن فى سورة يس ليتحدث عن وظيفة القمر فى ذلك النظام الربانى الدقيق المتعلق بالكون والزمن ، فيقول : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَاهُمْ مُظْلِمُونَ ، والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ، والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ، ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الآيات من ٣٧ – ٤٠) . فالقمر له منازل مقدرة وأشكال متوالية ، وكل شكل له من هذه الأشكال يكون بمقدار معين ، وزمان محدد ، وبترتيب تصاعدى

فى النصف الأول من الشهر ، ثم بترتيب تنازلى فى النصف الأخير من الشهر .

وهذا التنظيم الإلهى ثابت لا يضطرب ولا ينحرف ، فالشمس فى حركتها ونظامها ، والقمر كذلك فى حركته ونظامه ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولذلك يقول خبراء العلم فى التعليق على هذا النص القرآنى الكريم :

إن الشمس لها حركتها الذاتية ، ولكنها تتميز عن النجوم الأخرى لقربها من الأرض ، وبأن لها مجموعة من الكواكب والأقمار والمذنبات والكويكبات تتبعها دائما ، وتخضع لقوة جاذبيتها ، حيث تجعلها من حولها فى مدارات متتابعة بيضاوية الشكل ، وجميع أفراد هذه المجموعة تنتقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية .

والخلاصة أن الشمس والأرض والقمر وسائر الكواكب والأجرام ، تجرى فى الفضاء بسرعة محددة ، وفى اتجاه محدود ، ولم يعرف العلماء أن الشمس تجرى لمستقر لها إلا فى أوائل القرن العشرين ، ولا يمكن أن تدرك الشمس والقمر ، لأن كلا منهما يجرى فى أفلاك متوازية ، فيستحيل أن يتقابلا ، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار ، حيث يتطلب ذلك أن تدور الأرض حول محورها من الشرق إلى الغرب ، بدلا من اتجاهها الحالى من الغرب نحو الشرق . والقمر خلال دورته حول الأرض ، ودورة الأرض حول الشمس ، يمر بمجموعات من النجوم تسمى منازل القمر ، وفى التربيع الأول والأخير من الشهر يظهر القمر كالعرجون القديم ، أى يصير كالسباطة إذا قدمت ويبست واعوجت .

ولعل هذا هو السر فى أن الله تبارك وتعالى كرر قوله عن الشمس والقمر . « كلٌّ يجْرِى لأجل مُسمًّى » ومن ذلك قوله فى سورة لقمان : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فى النَّهارِ ، ويُولِجُ النَّهارَ فى اللَّيْلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ،

كلٌ يَجْرِى إلى أجَلٍ مُسَمًّى ، وأَنَّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (الآية ٢٩) . أى أن الله تعالى ينقص من زمن الليل بقدر ما يزيد من النهار ، وينقص من زمن النهار ما يزيد فى زمن الليل ، وسخر الشمس والقمر لصالحكم ، وأخضعهما لنظام دقيق بديع ، حيث يجرى كل منهما فى فلك معين لا يحيد عنه ، ويستمر ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا النظام المحكم يشير إليه أيضاً قولُ الله سبحانه فى سورة الأنعام : « فَالِقُ الإِصْبَاحِ ، وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا ، والشَّمْسَ والقمَرَ حُسْبَاناً » (الآية ٩٦) . ويفيدنا هذا النص أن القمر قد أقامه الله بحساب دقيق فى مكانه وبُعده عن الأرض التابع لها ، المؤثر فيها ، والعامل القوى فى حركة المد والجزر ، ويقرر علماء الطبيعة أن القمر لو كان أكبر من حجمه الذى هو عليه ، لكان المد الذى يحدثه فى البحار كافياً لإغراق الأرض ، وكذلك لو كان أقرب من بُعده عن الأرض .

وكذلك يمكن أن نفهم من عبارة : « والشمس والقمر حسباناً » معنى أن الله جعل القمر مع الشمس سبباً لضبط الحساب فى الزمن ، لأن طلوعهما وغروبهما ، وما يظهر من تحولاتهما واختلاف مظاهرهما ، كل ذلك بنظام وحساب يحدد الأيام والليالى ، والناس محتاجون أشد الاحتياج إلى هذا الضبط .

وعلماء الكون يقولون إن للأرض حركتين : إحداهما تتم فى أربع وعشرين ساعة ، وهى مدار حساب الأيام ، وحركة تتم فى سنة ، وبها يكون اختلاف الفصول ، وعليها مدار حساب السنين الشمسية .

ويؤكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرى حين يقول فى سورة الرحمن : « الشَّمس والقَمَر بحسْبانٍ » (الآية ٥) . أى إن الشمس والقمر يتحركان

ويجريان فى بروجهما ومنازلهما ، بحساب مقدر منتظم ، يترتب عليه تنظيم أمور الكائنات الأرضية ، وتتعاقب الفصول والأوقات ، من صيف وخريف ، وشتاء وربيع ، ومن ليل ونهار ، ومن نور وظلام ، ومن برودة وحرارة ، وتعرف السنون ويضبط الحساب !

* * *

ويمضى القرآن المجيد فى حديثه المعجز عن القمر ، مضمناً هذا الحديث كثيراً من الرموز والإشارات لقوم يتفكرون ويتدبرون ، فيدركون الكثير من الحقائق الكونية التى تشعرهم بجلال الله سبحانه ، ومن أمثلة ذلك قوله عز من قائل : « والشَّمْسِ وضُحاهَا ، والقَمَرِ إذا تَلاها ، والنَّهارِ إذا جلَّاهَا ، واللَّيْلِ إذَا يَغْشَاهَا » (سورة الشمس ١ — ٤) .

فقوله « تلاها » فيه إشارة إلى أن القمر يتبع الشمس ويتلوها ، ويأتى من ورائها ، فإذا غابت الشمس ، ودخل الليل ، ظهر القمر . وفيه كذلك إشارة إلى أن القمر ليس فيه نور ذاتى ، وإنما يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس عليه ، وكأن القمر يتبع الشمس ليطالبها بدين عليها له ، وهو أن تمده بالنور ، ولذلك يقول الإمام الأصفهانى فى كتابه « مفردات القرآن » إن قوله تعالى : « والقمر إذا تلاها » أراد به اتباع القمر للشمس على سبيل الاقتداء والاستمداد ، لأن القمر يقتبس النور من الشمس ، وهولها بمنزلة الخليفة عنها ، ولذلك نسب الضياء إلى الشمس ، ونسب النور إلى القمر ، لأن الضياء أقوى من النور ، وكل ضياء نور ، وليس كل نور ضياء .

وقوله : « واللَّيْلِ إذَا يَغْشَاهَا » فيه إشارة إلى حالة الظلمة الحالكة التى تعرض للأرض حينما لا يظهر ضوء الشمس ؛ لا مباشرة كما فى النهار ، ولا

بالواسطة كنور القمر المستفاد من الشمس ، وهذا يحدث كل شهر ليلة أو ليلتين وقد قال أهل التفسير إن الكلام هنا فيه مجاز عقلى ، لأنه أسند التغشية -- وهى التغطية -- إلى الليل ، وإنما الذى يغشى الشمس فى الحقيقة هى الأرض ، حين تتوسط بين الشمس والقمر تماماً فأسند التغشية إلى الليل لأنه أثر من آثار ذلك .

* * *

ويذكر القرآن الكريم انشقاق القمر فى قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ » (سورة القمر الآية ١) . وقد ذكر أهل التفسير والسنن أن انشقاق القمر معناه أنه قد انفصل بعضه عن بعض ، فصار فرقتين ، وقد جاءت أخبار قوية متينة تؤكد أن ذلك قد وقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل الهجرة بنحو خمس سنوات ، معجزةً من الله تعالى أيَّد بها رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء ذكر ذلك فى صحيحى البخارى ومسلم .

وفى الحديث المتفق عليه أن أهل مكة سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة ، فنزلت السورة : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم والترمذى جاء عن عبد الله رضى الله عنه : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ، فانشق القمر فلقتين : فلقة من وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله : اشهدوا .

وقد ثار نقاش طويل حول انشقاق القمر ، وأنكر الملاحدة وقوع ذلك ، وقد أورد الإمام الألوسى فى تفسيره اعتراضهم ورد عليه ، بهذه العبارة :

« وقال بعض الملاحدة : لو وقع لكان متواتراً ، واشترك أهل الأرض كلهم فى معرفته ، ولم يختص بها أهل مكة ، لأنه أمر محسوس مشاهد ،

والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل ما لم يعهد ، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ، ولم يعهد أصلًا فى الزمن القديم ، ولو كان له أصل لخلد أيضاً فى كتب التسيير والتنجيم ، ولذكره أهل الأرصاد ، فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير . وإطباقهم على تركه وإغفاله ، مع جلالة شأنه ووضوح أمره ، مما لا تجوِّزه العادة .

وأيضاً لا يعقل سبب فَرْق هذا الجرم العظيم ، وأيضاً خرقُه يوجد صوتاً هائلاً أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة ، لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه .

وأيضاً : متى خُرق وصار قطعتين ، ذهبت منه قوة التجاذب ، كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ، ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين طويلة .

والجواب عن ذلك أنه وقع فى الليل وزمان الغفلة ، وكان فى زمان قليل ، ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ، ضرورة اختلاف المطالع ، فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ، ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين ، والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم ، وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد ، والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره . غاية ما فى الباب أن يحدث فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية .

وأى مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه فى ضوء الشمس ، فقد قال أهل الحكمة الجديدة إن بين الأرض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ ، وإن ضوءها ليصل إلى الأرض فى مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية ، فيقطع الضوء فى كل ثانية سبعين ألف فرسخ .

ولا يلزم أن يُعلم سبب كل حادث ، بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها ، كرؤية الكواكب قريبةً مع بُعدها المفرط ، فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ، ويكفى فى ذلك عدم وقوفهم على سبب بالعين على الحقيقة ، ولو أخبرهم مخبر - بفرض أن لم يكن لهم أبصار - بخواص البصر ، مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح ، لأنكروا عليه غاية الإنكار ، وكذبوه غاية التكذيب ، ونسبوه إلى الجنون .

وقد حاول بعض الناس أن يفسر انشقاق القمر بأنه عبارة عن انشقاق الظلام عند طلوع القمر ، كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة منه . وحاول بعض آخر أن يقول إن معنى « انشق القمر » هو : وضح الأمر وظهر .

ولكن الألوسى حمل على هذين الرأيين قائلا : « وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ، ولا يلتفت إليه ، ولا أظن الداعى إليهما عند من يقر بالساعة التى هى أعظم من الانشقاق ، ويعترف بالعقائد الإسلامية التى وقع عليها الاتفاق ، سوى عدم ثبوت الأخبار فى وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده ، ومنشأ ذلك القصور التام ، والتمسك بشُبَه هى على طرف الثمام ؛ ومع ذلك لا يكفر المنكر ، بناء على عدم الاتفاق على تواتر ذلك ، وعدم كون الآية نصًّا فيه ، والإخراج من الدين أمر عظيم ، فيحتاط فيه ما لا يحتاط فى غيره ، والله تعالى الموفق » .

ولولا ما ورد فى شأن انشقاق القمر من أحاديث صحاح قوية تؤكد وقوعه بالصورة المذكورة فى كتب السنة لما استبعد العلماء أن يكون المراد بانشقاق القمر هو انفصاله عن أمه الأرض ، لأن علماء الفلك يقولون الآن إن القمر وليد الأرض ، كان قطعة منها ثم انفصل عنها . وقد جاء فى

كتاب « مع الله فى السماء » هذه العبارة :

« أمنا الأرض تلد طفلا . إنه القمر . نعم إنه القمر ، قطعة اقتطعت من الأرض والأرض لا تزال مائعة ، فإن صح هذا فعمر القمر من عمر الأرض . من عمر قشرتها يوم بدأت تتجمد . والذى اقتطع هذه القطعة من الأرض الشمس ، اجتذبت إليها من الأرض طرفاً ، ظل يبرز ثم يبرز ، حتى إذا تهيأ للانفصال انفصل ، كقطرة صغرى من ماء تنفصل عن قطرة كبرى ، وكانت الأرض تدور ، تدور حول نفسها ، وتدور حول الشمس ، فظل فصيلها – طفلها – يدور حول نفسه ويتبعها ، فيدور معها حول الشمس .

واستقر القمر اليوم على بعد من أمه الأرض متوسطه ٢٣٨٨٦٠ ميلا ، ولنقرأه مقرباً ٢٤٠٠٠٠ ميل ، وقطر الأرض نحو من ٨٠٠٠ ميل ، فبعد الأرض عن القمر نحو من ثلاثين قطراً من أقطار الأرض . وقطر القمر نفسه نحو من ٢١٦٠ ميلا ، فهو يزيد قليلا عن ربع قطر الأرض ، والأرض أثقل من القمر ٨٢ مرة .

نذكر هذا كله لننسب الوليد إلى أمه ، لتتكون فى ذهن القارئ صورة قريبة من حال هما عليه اليوم فى السماء ، وهو حال لا شك تغير كثيراً عن حال كان لهما فى سالف الأيام : الأيام البعيدة التى نحصيها بآلاف آلاف السنين .

وأول شىء يهمنا فيما نهدف من إيضاح وحدة الكون ، ما بين الأرض والقمر من تشابه فى التركيب . إن القمر اقتطع من الأرض ، وعلى هذا الفرض وجب أن يكون تركيبه كتركيب الأرض . ويقول العلماء إنه اقتطع من سطح الأرض والأرض على وشك انجماد ، ولا تزال فى سطح الأرض حفرة هائلة تشهد على هذا الاقتطاع ، فذلك هو الحوض الذى فيه

الماء الغمر ، الذى يعرف بالمحيط الهادى .

وانجمد القمر من بعد ذلك ، فوجب أن يشبه الأرض من بعد انجمادها . وننظر إلى القمر بالمناظير الحديثة ، ونأخذ له صوراً ، وننتهى بأن نقول : ما أشبه الوليد بأمه ، وهو إن اختلف عنها ، فلأسباب نعلمها كان هذا الاختلاف » .

ە ە ە

ومع هذه العناية البادية التى رأيناها من القرآن المجيد بشأن القمر ، ولفت الأبصار والبصائر إلى مكانته ومنفعته ومنزلته ، نجد القرآن يحدثنا بأن هناك ما هو أكبر من القمر ومن الشمس ، ومن غيرهما ، وأن هناك من هو أقوى من الكائنات جميعاً ، ذلكم الله جل جلاله ، القاهر فوق عباده وكائناته ، الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

إن القمر الذى يجرى بحسبان ، المنتظم فى مسيرته إلى ما شاء الله ، سيناله التغير والتبدل عند موعد يعلمه الله ، ولذلك يقول القرآن فى سورة القيامة : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ المفر » ؟ (الآيات ٧ — ١٠) .

إن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن حالة الدنيا عند خرابها ، قبل بداية العالم الآخر ، فتذكر أن البصر حينئذ يزيغ ويتحير ، ويذهب ضوء القمر ويظلم ، حينما يتأذن الله بخراب هذا العالم ، وتغيير نظامه ، ونسخ أحكامه ، وهناك لا تصير الأرض أرضاً ، ولا السماء سماء ، فتخرج الشمس عن أفلاكها ، وينتثر القمر ، وتضطرب الجاذبية القائمة الآن بين الشمس والقمر ، فإذا هما يتهاويان فيلتقيان ويجتمعان ، وهذا تصوير لنهاية الدمار

والاضطراب ، ولذلك يفزع الإنسان غاية الفزع قائلا : أين المفر ؟

إن القمر عظيم كبير بالنسبة إلى مخلوقات أخرى كثيرة ، ولكنه أمام عظمة الله صغير ضئيل .

ولهذا نبه القرآن الكريم إلى أن القمر مع الشمس ، مع كل من فى السموات والأرض ، يخضع لعظمة الله جل جلاله ، ويخشع لعظمته وجبروته ، ولذلك يقول القرآن فى سورة الحج : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمواتِ ومَنْ فِى الأَرْضِ ، والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ ، ومَنْ يُهِنِ اللهُ فما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ » (الآية ١٨) .

وأكد القرآن المجيد معنى خضوع الكائنات لجلاله وعظمته ، ومعنى سيطرته على ما فى السماء والأرض ، ومن بين ذلك القمر ، فقال فى سورة فصلت : « وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ ، والشَّمْسُ والقَمَرُ ، لا تسجُدُوا للشمسِ ولا للقَمَرِ ، واسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خلقَهُنَّ إنْ كُنْتم إيَّاهُ تعبُدون » (الآية ٣٧) .

* * *

وأخيراً نجد القرآن يتخذ من نظام النجوم ، وفى طليعتها الشمس والقمر ، وسيلة للنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وللتدبر فى آيات الله ودلائل عظمته ، وللاهتداء إلى استحقاقه الربوبية دون سواه ، لأن الذى خلق كل هذه الأجرام العظيمة ، وقدر لها منازلها ، وأجراها فى مسالكها ، وهيمن على أمرها ، وقدر على التصرف فيها ، هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض .

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : « وكَذلِكَ نُرِى إبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمواتِ

والأَرْضِ ، وليكُونَ مِنَ الموقِنِينَ . فلمَّا جَنَّ عليْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكباً ، قالَ هـذا ربِّى ، فلمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـٰذَا ربِّى ، فلمَّا أَفَلَ قالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنى ربِّى لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّين . فلَمَّا رأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قالَ هَـذا رَبِّى هـٰذا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مما تُشْرِكُونَ ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمواتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين » (الآيات من ٧٥ – ٧٩) .